مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الرابع عشر
1997

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1427 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1997 أفرنجي

أبو عثمان سعيد بن حكم الباري
صاحب جزيرة منرقة

د. محمد رغيم
كلية الآداب ـ جامعة قاريونس

هو أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن أحمد بن حكم بن عبد العزيز بن حكم القرشي. هكذا ذكره ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة»، ونقل ذلك عنه السيوطي في بغية الوعاة[1]. غير أن الغبريني، في كتابه «عنوان الدراية» يذكر خلافاً في ترتيب بعض أسماء أجداد ابن حكم بعد الجد الأول، إذ يذكره ضمن من دخل بجاية من العلماء، على أنه «أبو عثمان

(1) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، (بقية القسم الرابع): 28. 29.

السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 1: 583. يتفق ابن رشيد مع هذا الترتيب غير أنه يذكر عبد الغني بدلاً من عبد العزيز.

ابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، 2: 329.

سعيد بن حكم بن عمر بن حكم بن عبد الغني القرشي»[2]. ويوافق ابن سعيد في كتابه «اختصار القدح المعلى» وكذلك ابن الأبار في «الحلة السيراء»[3] ترتيب الغبريني لأسماء آباء ابن حكم، غير أنهما يغفلان ذكر اسم جده الأعلى عبد الغني كما يذكره الغبريني، أو عبد العزيز كما يورده ابن عبد الملك المراكشي، وعنه يأخذ السيوطي. ورغم أن ابن سعيد يعد أقرب المؤرخين من أبي عثمان سعيد بن حكم، لصداقتهما القديمة، وتلقيهما العلم في حلقات الدرس في إشبيلية في زمن واحد، واستمرار صلتهما وتراسلهما بعد أن فرق الزمن والأحداث بينهما، فعاش ابن سعيد في المشرق فترة، ثم استقر في تونس، وتنقل ابن حكم بين مدن شمالي إفريقية، ثم استقر في جزيرة منرقة، إلا أن صلتهما لم تفتر، ومراسلاتهما لم تنقطع، ورغم ذلك فلعل ابن سعيد لم يكمل إتمام سلسلة نسب ابن حكم وهو ترجم له لبعد الشقة بينهما عند تأليفه كتابه القدح المعلى، أو اكتفى بذكره أجداده الأقربين، أو لعل من اختصر كتاب القدح المعلى - الذي وصلنا مختصراً - قد حذف بعضاً من سلسلة هذا النسب.

كان مولد أبي عثمان سعيد بن حكم ليلة السبت سادس جمادى الآخرة سنة إحدى وستمائة للهجرة[4] في طبيرة (أو طلبيرة)[5] في غرب الأندلس. وكانت وفاته يوم السبت السابع والعشرين من رمضان عام ثمانين وستمائة.

---

(2) الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: 303.

(3) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى: 28.
ابن الأبار، الحلة السيراء، 2: 318.

(4) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 33 الغبريني، عنوان الدراية، 306 السيوطي، بغية الوعاة، 1: 583.

(5) يذكره ابن سعيد على أنه الطبيري (اختصار القدح المعلى: 28) وكذلك يذكره ابن عبد الملك المراكشي (الذيل والتكملة 4: 29) والمقري التلمساني يذكره أيضاً على أنه من مدينة طبيرة من غرب الأندلس (نفح الطيب 4: 472). أما الحميري في كتابه الروض المعطار (387 و395) لم يتأكد من وجود مدينة طبيرة، وذكر مدينة طلبيرة (395) بالتفصيل. وقد أشار الدكتور حسين مؤنس في هامش صفحة 318 من الحلة السيراء، الجزء الثاني، لابن الأبار إلى وجود مدينتين باسم طبيرة، إحداهما تسمى taviero قرب حدود إسبانيا مع البرتغال، والثانية وتكتب tavira في البرتغال أيضاً وهي مركز إداري في مديرية الغرب algarve وهي على ساحل البحر.

ولا نعرف عن نشأة ابن حكم الكثير. غير أنه على ما يبدو من أسرة مرموقة المكانة، ينتمي آباؤه إلى قريش، كما ينتمي أخواله بنو عيسى إلى الخزرج. وقد أتاحت له ظروف أسرته أن يتلقى العلم على خيرة علماء عصره، منهم أبو الحسن الدباج (ت646هـ) وأبو علي الشلوبين (ت645هـ) وابن عصفور (ت669هـ) وأبو القاسم بن يزيد بن بقي (ت625هـ) وأبو الحسن محمد بن محمد بن زرقون والقاضي أبو بكر محمد بن إسماعيل بن خلفون (ت636هـ) والفقيه أبو بكر السقطي (ت636هـ) وأبو الحسن أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلي (ت657هـ) والفقيه أبو الحسن علي بن أبي نصر البجائي (652هـ)[6]. وقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي علماء آخرين لقيهم في شمالي إفريقية، كما أجازه علماء من المشرق، منهم أبو الحسن علي بن أحمد القسطلاني[7].

وواضح أن بعض هؤلاء العلماء الذين تلقى عنهم كانوا بإشبيلية، مثل أبي الشلوبين الذي جلس لتعليم العربية خمسين عاماً أو يزيد، وكان حجة عصره في النحو. وقد ذكر ابن سعيد أن أبا عثمان بن حكم أرسل مقطوعة شعرية إلى أبويه يعبر عن أشواقه إليهما وهو في المرية «أيام شبابه وارتحاله لنيل المجد وطلابه»[8]. ثم يورد تسعة أبيات نظمها ابن حكم معبراً عن هذه الأشواق والحنين اللذين تختلج بهما نفسه، وتجيش بهما عواطفه. ولا ندري هل كان ارتحال ابن حكم إلى المرية طلباً للعلم، وهو في ريعان شبابه، أو أنه كان يحتل منصباً أو يطمح إلى منصب يناله، كما يذكر ابن سعيد أبوي ابن حكم بالاحترام والإجلال عندما يدعو لهما بعد هذا التقديم بقوله: «قدس الله ضريحهما». وإن كنا لا نعرف عنهما أو عن مكانتهما العلمية أو السياسية شيئاً. أما أخواله فهم بنو

---

(6) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 29 الغبريني، عنوان الدراية، 303 السيوطي، بغية الوعاة، 1: 583.

(7) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 29 ويذكر أسماء كثير من العلماء الذين أخذ عنهم أو أجازوه. أما الغبريني فيذكر بعضهم ثم يقول «وغيرهم ممن يكثر تعدادهم» يذكر ابن رشيد أن أبا محمد الخلاسي وهو من أهل بلنسية وولد بها سنة 610هـ ثم ارتحل إلى تونس وأقام بها، قد أجاز ابن حكم إجازة عامة، ابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة 2: 329.

(8) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 38.

عيسى. وقد تولى أحدهم رياسة شاطبة. وقد رثاه الشعراء عند مقتله على يدي الباجي. وممن رثاه أبو القاسم أحمد بن يامن (أو يامين) وحزن عليه ابن حكم حزناً شديداً نغص عليه حياته وكدر صفاء عيشه السابغ كما يقول ابن سعيد[9].

خرج أبو عثمان سعيد بن حكم من الأندلس، وجال في المغرب في زمن مبكر. إذ يذكر ابن عبدالملك المراكشي أنه لقي بإفريقية سنة أربع وعشرين وستمائة أبا الحسن علي بن محمد بن إسماعيل... الميافاريقي، وأخذ عنه بعض منشداته[10]. ويروي ابن الأبار أن ابن حكم «كان بإفريقية لما خاف من والي إشبيلية»[11]. وإن لم يذكر اسم هذا الوالي، أو سبب هذا الخوف الذي دفع بابن حكم إلى أن يرحل إلى إفريقية وهو في ريعان شبابه. كما دخل بجاية وبقي بها مدة كما يذكر الغبريني، ثم انتقل إلى تونس حيث أميرها أبو زكريا الحفصي[12]. ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه كتب عن بعض أمراء إفريقية ثم دخل إلى جزيرة ميورقة في أيام أبي يحيى بن أبي عمران التينمالي، ومنها استعمل على مجبى منرقة وأمر الإجناد بها. فدخل إليها في شهر رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة[13]، واستقل بها عندمااستولى خايمي الأول ملك قطلونية

---

(9) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 59، 68 وابن عيسى هذا هو أبو الحسين يحيى بن أبي جعفر أحمد بن عيسى الحزرجي، وينتسب إلى الصحابي الشهير سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقد ترجم له ابن الأبار في الحلة السيراء (2: 302ـ 308) ترجمة وافية، وذكر أنه ولد بدانية دار آبائه وبها نشأ ثم استوطن بشاطبة وبزغ نجمه فيها وساد وولي أمرها من قبل المتوكل محمد بن يوسف بن هود، ومدحه ابن الأبار (الديوان: 249ـ 251 و 323ـ 325) وقد كتب ابن يامن مدة عن رئيس شاطبة أبي الحسين بن عيسى، كما كان لأبي الحسين الذي توفي سنة 634هـ ابن هو القائد أبو بكر بشاطبه، وقد خرج من شاطبة بعد أن سقطت في أيدي الروم وأوى إلى حصن، وكان ذلك في سنة 645هـ، وقد رثاه ابن حكم ونسب إليه ابن المرابط في زواهر الفكر وجواهر الفقر (ورقة 49) الأبيات الثلاثة التي أوردها ابن سعيد في اختصار القدح المعلى (59) على أنها لابن يامن في رثاء ابن عيسى. كما كان هناك قواد آخرون من أسرة بني عيسى ذكر منهم ابن المرابط (زواهر الفكر وجواهر الفقر ورقة 99) إلى جوار أبي بكر هذا أبا عمرو وأبا عمر.

(10) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 4: 29.

(11) ابن الأبار، الحلة السيراء، 2: 318.

(12) الغبريني، عنوان الدراية، 303.

(13) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 30.

وأرغون على جزيرة ميورقة سنة سبع وعشرين وستمائة للهجرة[14]. وعقد مع خايمي الأول صلحاً ليدرأ خطره عن منرقة مقابل إتاوة سنوية يدفعها له. ولكن يبدو أن الأمور لم تستتب له إلا بعد أن تغلب على قاضي منرقة أبي عبد الله محمد بن هشام، وانفرد ابن حكم بضبط أمور جزيرة منرقة اعتباراً من ثاني عيد الفطر سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وأخرج ابن هشام وابنه ثم استرجعهما[15]. وقد وصف ابن عبد الملك المراكشي ما حدث بأنه فتنة طرأت وانتهت باستيلاء ابن حكم على ثغر منرقة وخلوصها له. وإن لم يذكر تفاصيل هذه الفتنة.

استطاع ابن حكم بعد أن استقر به المقام في جزيرة منرقة وآل إليه أمرها أن يضبط أمورها أحسن ضبط وداری النصارى ودرأ شرهم بدفع إتاوة سنوية لهم، واشترط مقابل ذلك ألا يدخلها عليه أحد من النصارى. واستمر حكمه للجزيرة أكثر من نصف قرن إلى أن وافته المنية سنة 680هـ، كما أسلفنا، وخلفه ابنه أبو عمر حكم الذي حكم إلى سنة 686هـ. غير أنه لم يستطع أن يسد الثغرة التي تركها والده، وإن كان يتمتع بخصال عظيمة أثنى عليها المؤرخون، ومنهم ابن الخطيب الذي وصفه بأنه «أفضل من أبيه في دماثة الخلق، والعفة عن الدماء والأبشار، واجتناب للعظائم، مع حسن الخط ورواية الحديث، وقرض الشعر، إلا أنه لم يستقل استقلال أبيه ولا نهض نهضته»[16]. ولم يتمكن أبو عمر هذامن مداراة النصارى ودرء خطرهم الداهم، فبيتوا النية على غزو جزيرة منرقة وتملكها مثلما ملكوا جزيرة ميورقة، وبعدها جزيرة يابسة. وسقطت منرقة نهائياً

---

(14) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 28. المغرب في حلى المغرب، 2: 467 ـ 469 المقري، نفح الطيب، 4: 469 ـ 471.

خلط بعض من أرخ لأبي عثمان سعيد بن حكم بين جزيرتي ميورقة ومنرقة، ولعل ذلك راجع إلى تشابه كتابة الجزيرتين، وهما جزيرتان من جزر ثلاث تقع في غربي البحر الأبيض المتوسط قرب شبه جزيرة إيبيريا، وتعرف بجزر البليار وهي ثلاث جزر: ميورقة وهي الكبرى وتليها منرقة أو (منورقة) ويابسة. انظر الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، وعصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية.

(15) ابن الأبار، الحلة السيراء، 2: 318، وابن عبد الملك، الذي والتكملة، 4: 30 ـ 31.

(16) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 276.

في أيدي ألفونسو الثالث ملك قطلونية وأرغون ووقع اتفاق تسليم الجزيرة في ثالث ذي الحجة سنة ست وثمانين وستمائة، وغادر أبو عمر حكم بن سعيد جزيرة منرقة، هو وأسرته. وقد ذهب إلى المرية ثم غرناطة، وأقام بها أياماً تحت جراية أميرها، ثم لحق بسبتة حيث دفن أبو عمر جثة والده التي حملها معه من جزيرة منرقة. ثم غادرها إلى تونس ولكن المنية وافته بعد أن تعرض المركب الذي يستقله لعاصفة هوجاء، فمات غريقاً وكل من كان معه من أهله. وكان ذلك في سنة 686هـ. أو بعدها بعام بأحواز الجزائر[17].

وبذلك طويت هذه الصفحة المشرقة الناصعة من تاريخ جزيرة منرقة التي حكمها أبو عثمان سعيد بن حكم زهاء نصف قرن بدهائه وحنكته وبسالته، وجعل منها مناراً للعلم وموطناً للعلماء والشعراء كما سنرى. ولا يؤخذ عليه إلا قسوته وشدته في العقاب وسفك الدماء، كما يقول ابن الخطيب الذي يورد مثلاً على ذلك قتله لمن يثبت عليه شرب الخمر، ومناقشته لاعتراض الفقيه ابن مفوز على ذلك واحتجاجه بأنه في جزيرة يكثر فيها العنب والناس يشربون ويسكرون فيضيعون الاحتراس ويظهر علينا العدو[18]. وعدم اقتناع ابن مفوز بذلك وغضبه لتجاوز ابن حكم أحد حدود شرع الله.

كان أبو عثمان سعيد بن حكم شاعراً كاتباً عالماً. وصفه الغبريني بقوله: «الشيخ الفقيه الأجل الرئيس المكرم المرفع أبو عثمان سعيد بن حكم.. له علم بالعربية والأدب، وله نظم ونثر وكتابة مستحسنة، وله مشاركة في العلوم، وله رواية عالية. وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط....»[19]. ووصفه ابن عبد الملك المراكشي، وعنه نقل السيوطي، بأنه: «كان نحوياً أديباً حسن التصرف في النظم والنثر مشاركاً في الفقه والحديث والرجال، ذا حظ صالح من

(17) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 277 سيسالم، عصام سالم، جزر الأندلس المنسية 458.

(18) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 275. 276. توفي ابن مفوز بتونس سنة 661هـ، وكان قد أسمع بمنرقة ثم بتونس، ومولده سنة 596هـ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس (القسم الأول): 10.

(19) الغبريني، عنوان الدراية، 304.

الطب»[20] ووصفه المقري بقوله: «الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي»[21]. ويضيف ابن عبد الملك المراكشي ـ وينقل عنه السيوطي ـ إلى صفاته الجليلة وضبطه لأمور جزيرة منرقة أنه «لا يفتر عن النظر في العلم وإفادته واستفادته شغفاًبه وتفضيلاً له»[22]. وقد روى عن أبي عثمان سعيد بن حكم كثيرون: منهم يوسف بن مفوز، وابنه أبو عمر حكم ـ الذي خلفه في حكم جزيرة منرقة ـ ومولاهما أبو محمد عبد الله الرومي، وأبو عبد الله بن أبي بكر البري (التلمساني)، وابن أحمد بن الجلاب، وأبو الحكم العادل بن إبراهيم، وأبو علي عمر بن علي بن الشاطبي، وأبو الحسن علي بن يحيى التجيبي المنرقي، وأبو عامر أحمد بن أبي بكر محمد بن محمد بن محرز[23] وقد أجاز لأبي محمد عبد الله بن محمد بن الرهان[24]. ولا ندري هل جلس ابن حكم للإقراء والتدريس في فترة من حياته، أو أنه كان يلتقي بالعلماء وطلاب العلم سواء كان في بجاية أو منرقة أو قبل ذلك في إشبيلة أو في تونس. وقد كان للصفات العظيمة التي تمتع بها ابن حكم من كرم وعلم واحتفاء بالعلماء والأدباء في جزيرة منرقة ما جعل منه محط الأنظار والآمال، ومن جزيرته التي ازدهرت في عهده موطناً آمناً يلجأ إليه الناس خاصة أصدقاءه ومعارفه الذين وفدوا إليه من الأندلس يطلبون رفده وينعمون برغد العيش في كنفه، بعد أن تعرضت الأندلس إلى حملات الاسترداد المسيحي، وسقطت مدنها الكبرى والصغرى الواحدة تلو الأخرى بعد أن خسر الموحدون معركة فاصلة سنة 609هـ، عرفت بمعركة العقاب، وما تلا ذلك من تفكك لأواصر الدولة الموحدية في الأندلس وتنافس أمراء الدولة الموحدية على السلطة في الأندلس وفي المغرب، ونهوض أمراء محليين أندلسيين يستقلون بإمارات هنا وهناك، ويرسلون بيعاتهم إلى الخليفة في

(20) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 30، السيوطي، بغية الوعاة 1: 583.

(21) المقري، نفح الطيب، 4: 471.

(22) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 31. السيوطي، بغية الوعاة، 1: 583.

(23) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 29. 30.

(24) ابن القاضي، درة الحجال، 1: 59.

مراكش أو الخليفة العباسي في بغداد أو الحفصي في تونس، وكان من بين هؤلاء الأمراء زيان بن مرد نيش[25] والمتوكل محمد بن يوسف بن هود[26] وابن الأحمر[27]. كما قامت زعامات صغرى محلية تدير شؤون المدن تابعين لأحد هؤلاء الأمراء أو يختارهم أهل المدينة تجنباً للفوضى وإنقاذاً لواقع مزر ومستقبل مجهول، ومن هؤلاء أبو مروان الباجي[28] ثم الحافظ أبو عمر بن الجد[29] في إشبيلية، وأبو بكر عزيز بن خطاب في مرسية[30] وأبو الحسين بن عيسى[31] في شاطبة، ثم كان سقوط المدن الكبرى في أيدي النصارى، سقطت قرطبة عام 633هـ، وسقطت بلنسية عام 636هـ وشاطبة عام 645هـ وإشبيلية عام 646هـ. وكان مقتل ابن هود سنة 635 على أيدي عامله أبي عبد الله الرميمي في المرية ضربة قاصمة لآمال الأندلسيين المتطلعين إلى الصمود في وجه الغزو المسيحي لمدنهم وقراهم وأراضيهم. ولم يبق مع منتصف القرن السابع إلا ابن الأحمر الذي أسس ملكه في غرناطة وأحوازها، وخلفه بنوه من بعده على حكمها إلى أن دالت دولتهم بعد ذلك بقرون على أيدي فرديناند وإيزابيلا عام 898هـ (1492م).

نزح كثير من الأندلسيين في خضم هذه الأحداث منذ بدايات القرن السابع للهجرة إلى شمالي إفريقية: إلى مراكش حيث مركز الخلافة وإلى سبتة حيث

---

(25) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 272ـ 274.

(26) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 2: 128ـ 130.

(27) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، 30ـ 36 وابن الأحمر هو الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر الخزرجي الأنصاري مؤسس مملكة غرناطة، وقد حكم بين سنتي 635ـ 671هـ، وكان مولده سنة 591هـ.

(28) ابن عذارى، البيان المغرب (القسم الثالث): 279 و288 و322، ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 112.

(29) ابن عذارى، البيان المغرب، 3:338 و381، وقد مدحه الشاعر إبراهيم بن سهل بقصائد عدة منشورة في ديوانه.

(30) ابن الأبار، الحلة السيراء، 2: 308ـ 314. ابن سعيد، اختصار القدح المعلى 146ـ 147، ابن الزبير، صلة الصلة: 165.

(31) ابن الأبار، الحلة السيرا، 2: 303ـ 308.

عاملها أبو علي الحسن بن خلاص القضاعي البلنسي الذي استصدر ظهيرا (مرسوما) من الخليفة الموحدي الرشيد سنة 637هـ يسمح بموجبه للأندلسيين بالإقامة في ربوع دولته ويعدهم بتقديم المساعدات لهم[32]. وكان قبل ابن خلاص عاملاً على سبتة أبو العباس اليانشتي وهو أندلسي أيضاً، وقد حكم بين سنتي 630هـ و635هـ، حيث عين مكانه ابن خلاص، وقد رعى كل منهما من لجأ إليهما من الأندلسيين، وكان بلاط ابن خلاص يعج بالكتاب والأدباء والعلماء الأندلسيين: منهم أبو المطرف بن عميرة وابن الجنان وأبو بكر بن البنا وإبراهيم بن سهل. واستمر يحكم سبتة إلى أن غادرها بعد وفاة ابنه أبي القاسم غريقاً عام 643هـ مع إبراهيم بن سهل حاملاً بيعة والده إلى الخليفة أبي زكريا الحفصي في تونس، فرحل الوالد الحزين أبو علي الحسن بن خلاص متوجهاً إلى تونس، فوافته منيته وهو في طريقه إليها في وهران، ودفن ببجاية سنة 646هـ[33]. وكانت هناك بجاية التي أمها كثير من علماء الأندلس وفقهائها وأدبائها. وقد احتفظ لنا الغبريني بتراجم هؤلاء الأعلام الذين عاشوا في بجاية خلال القرن السابع الهجري، وخصهم بكتاب كامل هو «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية». وكان هناك بلاط أبي زكريا الحفصي ثم ابنه أبي عبد الله المستنصر من بعده، حيث اجتمع لديهما نخبة من علماء الأندلس المهاجرين إلى تونس، واحتفظ لنا ابن رشيد في رحلته بأسماء وتراجم الكثيرين منهم الذين لقيهم في تونس في تلك الفترة، ومنهم حازم القرطاجني وابن حبيش وابن سعيد وابن الأبار وكثيرون غيرهم[34]. والملاحظ أن هؤلاء الأعلام كانوا ينتقلون بين هذه المدن ناشرين ثقافتهم ناقلين تراثهم العلمي والأدبي. وكان بلاط أبي عثمان سعيد بن حكم في منرقة لا يقل شأناً عن بلاط الخليفة الموحدي في مراكش، وأبي زكريا الحفصي وابنه المستنصر في تونس،

---

(32) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ورقة 115، وبها نص الظهير، وهو من إنشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي.

(33) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 98 و145 مجهول، الذخيرة السنية، 80.

(34) ابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة... الجزء الثاني.

من حيث احتفاؤه بالعلماء والشعراء والأدباء. وقد أتاح له طول المدة التي قضاها حاكماً لجزيرة منرقة منذ سنة 627هـ إلى حين وفاته سنة 680هـ والاستقرار الذي نعمت به الجزيرة في عهده أن تشهد جزيرة منرقة ازدهاراً اقتصادياً ونهضة ثقافية وعلمية رائعة. وقد كان هو نفسه عالماً فقيهاً أديباً شاعراً، اجتمع في بلاطه نخبة صالحة من أهل العلم والأدب، كان منهم أبو عبد الله بن الجنان[35] وأبو القاسم أحمد بن يامين (أويامن)[36] والشاعر إبراهيم بن سهل، وأبو بكر بن العوام الإشبيلي[37] والأديب أبو الربيع سليمان بن علي الذي عرف بكثير[38] وأبو العلاء محمد بن علي المرادي المعروف بابن المرابط مؤلف كتاب «زواهر الفكر وجواهر الفقر» في ثلاثة أسفار جمع فيه ما كان يدور في بلاط ابن حكم من شعر ونثر ومراسلات، وابن عمه القاضي أبو بكر بن المرابط، وأبو عبد الله البري التلمساني الذي ألف كتاباً بعنوان «الجوهرة في نسب الرسول ﷺ وأصحابه العشرة». وقد ألفه في السجن سنة 644هـ، وأهدى منه نسخة بعد ذلك بسنة بخط يده إلى خزانة ابن حكم اعترافاً منه بفضله إذ أخرجه من السجن، وقد كان أسيراً لدى العدو، وافتداه بمال لإطلاق سراحه. وقد كان أبو عثمان سعيد بن حكم، كما كان أبو زكريا الحفصي في تونس، يدفعان فدية كثير ممن يقع أسيراً في أيدي العدو، حتى يفك من الأسر.

وقد وصف ابن سعيد صنيع ابن حكم بقوله: «فكم لقيت بأقطار المغرب والمشرق من أديب أو شاعر أو حسيب، خلع عنه ربقة الإسار، ونقله إلى قرارة الإسلام من محلة الكفار»[39]. ويذكر ابن سهل أن المركب الذي كان يستقله

---

(35) ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة 2: 348ـ 359. الغبريني، عنوان الدراية، 349ـ 359. المقري، نفح الطيب، 7: 406ـ 506.

(36) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى 53ـ 59. ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول (القسم الثاني) 522ـ 524. توفي ابن يامن بتونس سنة 661هـ.

(37) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 179ـ 180.

(38) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 189، الغبريني، عنوان الدراية، 279 ـ 281، المقري نفح الطيب، 4: 473ـ 476.

(39) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 28.

مزمعاً الرحلة إلى تونس قد تعرض له مركب للنصارى في الميناء قبل مغادرته فهرع أبو عثمان بن حكم في كوكبة من الفرسان إلى الميناء وأنقذ المركب الذي كان به ابن سهل، ونزل قائد مركب العدو منخذلاً ومسلماً على ابن حكم، وعاد ابن سهل مع سيده ابن حكم إلى الجزيرة ومدحه بقصيدة عصماء[40]. ولم تقتصر عطاياه وأفضاله على من كان يحيا في كنفه، بل كانت تصل إلى أصدقائه وطالبي معونته في مدن المغرب والأندلس، بل وإلى الحجاز كما يذكر ذلك ابن سعيد بقوله: «وما يجب أن يخلد من مكرماته، ويطرز به ذكره من عليّ همماته، أن المجاورين بالحرمين يستعينونه على ما هم بسبيله فيعينهم من اللجين والعين، مما يثلج الجنان ويقر العين»[41].

وممن كاتبهم ابن حكم، وهم مقيمون في مدن شمالي إفريقية: سبتة وبجاية وتونس ومدن الأندلس، الكاتب ابن همشك التينمللي الذي عاد من الأندلس إلى سبتة عام ستة وثلاثين وستمائة في عهد ابن خلاص البلنسي، ثم غادرها بعد وفاة ابن خلاص وأقام في تونس منذ سنة سبع وأربعين وستمائة إلى أن توفي بها سنة ست وخمسين وستمائة[42]. ومنهم صديقه ابن سعيد المقيم في تونس وأبو الربيع سليمان بن علي التينمللي المعروف بابن الغريغر، وكان أيضاً مقيماً بتونس[43]، وأبو المطرف بن عميرة المخزومي الذي راسله من قابس وبجاية وسبتة ومدحه بقصائده وخصه بكثير من مراسلاته[44]. وممن راسلهم ابن حكم ووصلت عطاياه إليهم من الفقهاء والصالحين ببجاية الفقيه أبو بكر بن

(40) إبراهيم بن سهل، الديوان: 136، ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ورقة 190.

(41) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى: 28.

(42) المصدر نفسه، 98ـ 99 و104.

(43) المصدر نفسه، 34.

(44) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ورقات 61ـ 71 و 76ـ 80، محمد بن شريفة، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي.. 191 و224 و 226ـ 227، يعد كتاب ابن شريفة الذي كان رسالة جامعية قدمت إلى جامعة محمد الخامس نموذجاً للدراسة المستقصية والعمل الدؤوب، وقد شمل كثيراً من جوانب الحياة الأدبية في الأندلس وشمال إفريقية في النصف الأول من القرن السابع الهجري. طبع الكتاب سنة 1966.

محرز الزهري (ت655هـ) وأبو العباس بن خضر وأبو الحسين الزهري وأبو عبد الله محمد بن ثابت القسنطيني[45]. وقد اهتم ابن حكم بجمع الكتب واقتناء النفيس منها «حتى جمع منها ما لا نظير له كثرة وجودة، إذ كان مقصوداً بها من المسلمين والنصارى، فكان يتخدم بها إليه النصارى كما يتقرب بها إليه المسلمون»[46]، بل قد تؤلف بعض الكتب له خاصة ليتحف بها مكتبته ويطلع عليها. وقد ألفت باسمه التآليف المشهورة بالمغرب، ككتاب «رَوْح الشحر وروح الشعر» الذي يذكره المقري[47]، ويبدي آراءه فيما يقرأ من تآليف وقد يكل أمر تقويم كتاب، إذا لم يسعفه الوقت، إلى أحد حاشيته من الكتاب والعلماء، كما فعل ذلك مع ابن يامن في شأن تأليف الفقيه الراوية أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المري التلمساني الذي رفعه إلى خزانته وسماه الجوهرة، وقد قال ابن حكم مخاطباً ابن يامن[48]:

عساك تشقه لترى منازعه وتختبرا
فإما أن تفهرسه وإما أن ترى وترا
ولم أفرغ لأنظره ومنك من كفى النظرا

وقد عرف عن الأندلسيين اهتمامهم باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة، خاصة عند بعض الأسر الموسرة التي تهيىء الفرصة لمن يرغب الإفادة من هذه المكتبات التي يتوارثونها كابراً عن كابر، ويعدونها من مفاخرهم[49]. وقد انتقل هذا الاهتمام وذلك التقليد المتوارث إلى بعض الأسر التي نزحت من الأندلس إلى المغرب وتونس، واحتفظت بمكتبة الأسرة وعملت على تنميتها وطلب النفيس من المخطوطات لتضم إليها إلى يومنا هذا. ومن هذه الأسر صاحبة المكتبات القيمة: آل الكتاني وابن سودة والبنوني في المغرب، وآل

(45) الغبريني، عنوان الدراية، 304.
(46) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، 4: 31.
(47) المقري، نفح الطيب، 4: 472.
(48) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ورقة43.
(49) ريبيرا، المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 4 جزء 1 ص85 وما بعدها.

النيفر وحسن حسني عبد الوهاب الصمادحي وآل ابن عاشور في تونس، ناهيك عن الأسر الحاكمة سواء في الأندلس أو المغرب أو تونس، ولا تزال هذه المكتبات أو ما بقي منها شاهداً على ذلك الاهتمام والحرص على الاحتفاظ بها ككنوز لا يفرط فيها.

كان ابن حكم الشاعر الأديب يقترح على جلسائه من الشعراء النظم في موضوعات معينة تعن له، وهو يلتقي بهم في مجلسه الذي يشبه أن يكون منتدى أدبياً. فمن ذلك ما يرويه لنا ابن المرابط عن طلب ابن حكم إلى القاضي أبي بكر بن المرابط أن يعارض قصيدة علي بن الجهم الرائية التي يقول فيها:

عيون المهابين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا يدري

وطلبه إلى أبي عبد الله بن الجنان أن يعارض القصيدة ذاتها، وقد فعل كل منهما ما طلبه ابن حكم منه، وطلبه أن يعارض قصيدة عمر ابن أبي ربيعة التي مطلعها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غادة غدٍ أم رائح فمهجر

فعارضها الفقيه أبو الحسين بن مفوز بقصيدة تضمنت مدح ابن حكم[50].

وقد كان ابن حكم نفسه شاعراً احتفظت لنا كتب الأدب التي أرخت لحياته بشيء من شعره. ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه «رأى من شعر ابن حكم مجلداً جيداً أشف من ديوان شعر المتنبي بخط ابنه أبي عمرو حكم»[51]، وإن لم يصلنا هذا المجلد الذي رآه ابن عبد الملك وأعجب به وقارنه بشعر المتنبي. فقد بلغنا شيء من هذا الشعر سجله صديقه ابن سعيد في كتابه اختصار القدح المعلى، كما احتفظ لنا بقدر أكبر من ذلك معاصره ابن المرابط في كتابه «زواهر الفكر» الذي لم يبق منه إلا السفر الثالث، وقد حوى كثيراً مما كان يدور في بلاط ابن حكم من مساجلات شعرية، أو ما كان يمدحه به شعراء يحيون في كنفه أو يراسلونه من خارج الجزيرة شعراً ونثراً، وما كان ينظمه هو في قصائد مستقلة، أو

(50) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، الورقتان 28ـ 29.

(51) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 31.

ما يضمنه رسائله الإخوانية من مقطوعات شعرية، أو ما ينظمه في مواقف عارضة يصف فيها ما يدور حوله أو يشاهده. وقد وصلنا من شعره ما ينم عن قدرة على الارتجال، كما سنعرض فيما بعد. ويبدو أن ملكته الشعرية أفصحت عن نفسها في فترة مبكرة من حياته وقد وصلتنا من شعر تلك الفترة مقطوعتان: إحداهما تسعة أبيات سجلها ابن سعيد في اختصار القدح المعلى، بعث بها الشاعر إلى أبويه من المرية، يبث فيها شوقه وحنينه إليهما، منها قوله[52]:

فراق وما لي بالفراق يدان ... إلى الله مما جرّه الملوان
قضى الله أن أحتل بالشرق برهة ... وإن كان بالغرب القصي مكاني
ففارقته والنفس تأبى فراقه ... وغادرته والشوق حشو جناني
لئن كنتما عن ناظريّ حُجبتما ... فإنكما في خاطري ولساني

والأخرى غزلية احتفظ لنا ابن سعيد بها، وهي من سبعة أبيات نظمها ابن حكم في أيام صباه، وقد مرت به امرأة جميلة كان زوجها شرطياً، فقال ابن حكم[53]:

وجنة خازنها مالك ... يا ليتني كنت لها مالكا
أسجد في محرابها سجدة ... نسكا ومثلي لم يزل ناسكا
وكيف أرجو القرب منها وقد ... أضحى حساما لحظها فاتكا
يحرمني من وجنتيها ما بدا ... روضاً غدا من أدمعي ضاحكاً
إن أماني الفتى صِلة ... يمنى بها حتى يرى هالكاً
من لي بها شمس الضحى أطلعت ... جنح دجى من شعرها حالكا
سلكت سبل الغي في حبها ... ولم أكن قبل لها سالكا

وكان الشاعر يميل إلى الارتجال في موضوعات تعن له أو يجد نفسه في موقف مع جلسائه يصف ما يحدث في ذلك الموقف. فمن ذلك ما قاله ارتجالاً في قلم تكسر[54]:

---

(52) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 38.

(53) المصدر نفسه، 39.

(54) المصدر نفسه، 38. أحارت: صيرت. مقويات: متهدمة كالدار المتهدمة الموحشة.

لكفيَّ وِتْرٌ عند رجلي لأنها أبادت رضيع الكف واللبن الحبر
أحارت قُواه مقوياتِ بوطئه وصار كسيراً ما لأعظمه جبر

كما قال ارتجالاً في نوارة بكف جارية حسناء حديثة السن[55]:

نوارة تحمل نوارة أبهتني أيهما أبهج
كأنها في كفها شمعة خضراء لكن رأسها مسرج

وله ارتجالاً في دنس الثياب[56]:

أعيا على الغسال غسل ثيابه وتقاصرت عنها يد القصار
ولقد طلبت لها غسولاً جاهداً فَلَمَا ظفرت لها بغير النار

وله في مؤذن سيىء النغمة قوله[57]:

للأبْدي أذان للخمس فيه هوان
من أجله تتلاقى آذاننا والبنان

وقد كان ابن حكم ينظم في موضوعات صغيرة، كقوله في شمعة[58]:

وصفراء من غير ما علة لها أدمع أبدا سائله
تطيل الوقوف على واحد مدي ليلها فترى ناحله
تزيد على الشمس في نورها إذا ما غدت للدجى واصله
تحارب دأباً جيوش الظلام فتبصر مقتولة قاتله

وله في محبرة عاج مذهبة الحلية وذكر مدادها وأقلامها[59]:

طلعتْ على الليل البهيم صباحا وحمته باحتها وكان مباحاً
وبنت بنيه إزاءها وزرا له فلما نبوا في النائبات سلاحا
وثنت رماحا من نضار فانثنت رشحا لها صوناً لهم وصلاحا
فإذا تفرج بابها عنهم عنا الأب والبنون لأبيض إن لاحا

(55) المصدر نفسه، 32.
(56) المصدر نفسه، 30.
(57) ابن المرابط، زواهر الفكر، الورقة 44، ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 30.
(58) ابن سعيد، المصدر نفسه، 32.
(59) المصدر نفسه، 33.

إن الـوفـاء لـخـلـة لا تـقـضـهـا فـي خـلـة حـتـى تـكـون صـراحـا

وقد كتب على حمالة سيفه[60]:

أبشر فقد نلت ما ترجو وتنتظر وقد جرى بالذي تختاره القدر
وساعدتك على الأيام أربعة العز والنصر والإقبال والظفر

كما قال في ضرس[61]:

حبيب أحاذر منه التلاقي ومن دونه العيش مر التلاقي
فغيبته سبب للوصال ورؤيته سبب للفراق

كما قال في إبرة[62]:

وما قناة من قناة الهند وفاق فعالها
عارية في نفسها كاسية لأهلها
حافرها في علوها ورأسها في سفلها

وأرسل إلى بعض أصدقائه مع خمس من السفرجل[63]:

وجوار خمس كسين اصفرارا إذ سلبن الذي لبسن شعارا
قاسيات وكن لليين أهلا أي عذر في قسوة لعذارى
من بنات الرياض أمسين أحرا را وأصبحن في الأكف أسارى
كنَّ بالبدر عاكفات فما إن كان ما يلتحفن إلا اغبرارا
وجل ليلة البراء كساهن اصفرارا، ألم تر الأبكارا

ومما قال في وصف المجبنات[64]:

وناعمات على العذاب من المنى اللذة العذاب
يعلو احمرار منها ابيضاضا صبغ حياء خديْ كعاب

---

(60) المصدر نفسه، 35.

(61) المصدر نفسه، 33.

(62) المصدر نفسه، 33.

(63) المصدر نفسه، 33 البراء: ليلة البراء أول ليلة في الشهر.

(64) زواهر الفكر وجواهر الفقر، الورقة 41. المجبنات: نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها. وتقلى بالزيت الطيب، وكانت معروفة في الأندلس وبلاد المغرب.

وجلس يوماً متنزهاً بالبستان بمنرقة ومعه جماعة الطلبة، فقال مرتجلاً[65]:

ويوم تولى نظم عقد صحابه كرام كسوا وجه الزمان جمالا
أجنهم البستان بين ضلوعه كسرٌ هوى أجنى المحب وصالا

فقال الأديب الفقيه أبو الربيع سليمان بن علي المعروف بكثير:

لقد عم إنعام الرئيس وطَوْلُه فعم على شكر المطيل وطالا
أفاد فعالاً لا كفاء لمثله ولم يكفه فضلاً فزاد مقالا

كما كان يراسل أصدقاءه شعراً ونثراً، ووصلت مراسلاته إلى أصدقائه في تونس وبجاية وغيرهما. فمن ذلك ما كتب به إلى ابن سعيد في تونس مجاوباً له[66]:

ما رأينا كعلي بن موسى يستبي بالشعر منا النفوسا
قد أرانا الشعر سحراً حلالا سائغاً لو نحتسيه كؤوسا
إن أبيات علي على الشعـ ـر علت حتى تجلت رؤوسا
مثله من طاب جنساً ونفساً إنما يمنح علقاً نفيساً
لا عدمناه خليلاً جليلاً نجد الفضل عليه حبيسا

وقد ذيل هذه الأبيات بقطعة من النثر تصور نزعة ابن حكم في الكتابة، وتمثل أسلوب ذلك العصر من احتفاء الكتاب بالسجع والمزاوجة وغيرها.

كما كان يخاطب الخليفة الحفصي في تونس شعراً أورد ابن سعيد نتفا منه[67]، كما خاطب صديقه الشاعر ابن يامن شعراً[68]، وخاطب أبا الحسن بن مفوز شعراً أيضاً[69].

وكان يتلقى رسائل إخوانه من مختلف البلاد المغربية، ويجاوبهم غير

(65) المصدر نفس، الورقة 44.
(66) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى 29.
(67) المصدر نفسه، 30 و34 و40 و41.
(68) المصدر نفسه، 37.
(69) المصدر نفسه، 35.

متكبر أو متوان. فكان ممن يراسلهم أبو المطرف بن عميرة، إذ أرسل إليه ابن عميرة مذكراً بصلة الرحم بينهما إذ كلاهما قرشي[70].

فدتك أبا عثمان أنفسنا التي ... أعنة ذاك الفضل قادت عرابها
وعندي يا ابن العم فيها أليّة ... عرفت يقينا بِرّها وصوابها
بأن المعالي لو جمعن مسائلاً ... على الحصر فيها كنت أنت جوابها

ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن خطاب الهنتاتي الجياني الذي اختاره أبو عبد الله بن الأحمر ليتقلد منصباًرفيعاً في دولته في الأندلس، ثم قدم إلى تونس، ونال فيها حظوة عظيمة. وقد مدح أبو عبد الله هذا أبا عثمان ابن حكم بقصائد منها قوله[71].

تفنى الكتائب بيض من قواضيه ... مفلولة وتشي أقلامه الكتبا
فقد أعد حساما للجلاد به ... وللجدال لساناً مثله ذربا
في كفه قلم ماض يريك به ... أغنى من القضب الهندية القصبا
يمضي بما شاء من نفع ومن ضرر ... في كل خطب له حد الحسام نبا

وله فيه أيضاً[72]:

يا رئيساً أرسى بحار علاه ... فوق هَضب من الفخار منيف
قد عداني عن الخطاب اشتغال ... بأمور من كيد دهر عنيف

وراسل ابن حكم الخليفة الحفصي أبا زكريا في أكثر من مناسبة مادحاً مذيلاً رسائله بمقطوعات شعرية أثبتها ابن سعيد في اختصار القدح المعلى، كما

---

(70) المصدر نفسه، 49 وقد أورد ابن سعيد لأبي المطرف بن عميرة عدة مقطوعات في مدح ابن حكم. كما احتفظ لنا ابن المرابط في السفر الثالث من زواهر الفكر وجواهر الفقر بكثير من رسائل ابن عميرة التي بعث بها إلى ابن حكم من بجاية وتونس وقابس ومرسية، وكان كل منهما يجل صاحبه ويثني عليه. (زواهر الفكر: الورقات: 65ـ 82.

(71) ابن سعيد، المصدر نفسه، 22. وقد أورد ابن المرابط في زواهر الفكر (ورقة 51) رد ابن حكم على رسالة ابن خطاب التي أرسلها من المرية شعراً ونثراً وقد أثبت ستة وعشرين بيتاً يقول منها:

إني أرقت لطارق وأفاني ... وهنا فأوهن عقدة الأجفان
حيا فأحيا بعد بعد تحايل ... إن البعاد هو الممات الثاني

(72) ابن سعيد، المصدر نفسه، 25.

أثبت ابن المرابط في زواهر الفكر رسالة مطولة ذيلها بقصيدة طويلة بعثها إلى أبي عبد الله بن أبي زكريا الحفصي، يهنئه فيها بانتصاره على عميه اللذين ثارا ضده بمواطئة ابن أبي يهرى[73]، وراسل قبله أخاه أبا يحيى بن أبي زكريا[74]. وعندما رزىء ابن حكم بوفاة ابنه محمد سنة 649هـ رثاه الشعراء، ومنهم أبو القاسم بن يامين وأبو بكر بن المرابط وأبو عبد الله التلمساني[75]. كما رثى الشعراء ابنته التي توفيت وقبلها ابنها. وقد رثاها ابن يامين، واستحسن ابن حكم مرثية ابن يامين هذه، فأتبع كل بيت منها ببيت من نظمه، فالأول مثلاً لابن يامين والثاني لابن حكم والثالث لابن يامين والرابع لابن حكم وهكذا إلى آخر القصيدة[76].

غريب لا يزور ولا يزار ... نأت عنه الأحبة والديار
(يهيم الهم منه بجار جنب ... وزور الأنس عنه له ازورار)
له في القلب نار ليس تخبو ... وإن كانت تحيط به البحار
(ألم نر أن دمع العين ماء ... وهل طفيت به للقلب نار)
أجنته مترقة في حشاها ... وكان له بشاطبة اشتهار
(ونقل الدهر نقل من محل ... لآخر إذ حمياه تدار)

وقد جود ابن حكم في النظم في موضوعات الشعر المختلفة وإن كان يميل إلى الارتجال فيما يعن له من موضوعات أو يصادفه من مواقف. فقد وصف وقد رثى وقد ضمن رسائله مقطوعات شعرية مبتدئاً بها أو مختتماً بها رسائله، ومنها الإخوانية. ولكنه لم يمدح ليتكسب بشعره فقد أغناه منصبه فلم يضطر أن يريق ماء وجهه طلباً لمال أو عطاء، بل كان يغدق على الشعراء والعلماء في مترقة وخارجها في مدن الأندلس وشمالي إفريقية، وإن كان يمدح

(73) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر الورقات 55ـ 58، والقصيدة طويلة أثبتها ابن المرابط في الورقتين 58ـ 59.
(74) المصدر نفسه، ورقة 45.
(75) المصدر نفسه، الورقات 59ـ 64، 82.
(76) المصدر نفسه، الورقات 46ـ 48 الأبيات التي بين الأقواس من نظم ابن حكم وقد أورد ابن المرابط القصيدة كاملة وما نظمه ابن حكم منها.

في شعره أصدقاءه أو من يكن لهم الود والإجلال، مثل الأمير أبي زكريا الحفصي وابنيه أبي عبد الله المستنصر وأبي يحيى.

ولم يقتصر ابن حكم على قول الشعر والطلب إلى الشعراء أن ينظموا في موضوعات معينة أو أن يعارضوا قصائد لشعراء سبقوهم كما مر بنا، ولكن كان ينظم الموشحات أو يبدأ بمطلع موشح ويطلب إكمال ذلك الموشح كما فعل مع إبراهيم بن سهل، الذي صنع موشحه إجازة لابتداء موشح قاله ابن حكم، إذ قال[77]:

طيف ألم شفى ألم شوق هجم هجمة الأُسْد
كاد يبيد منه العميد وهل يفيد ذاك أو يجدي

فأجازه ابن سهل قائلاً:

من لي بأحوى غرير قبلته بالضمير
فعبرت عن عبير أنفاسه بزفير
ولا جرم أن الضرم إذا احتدم تم بالند
ولا جحود من الحسود أفشى الوقود صندل الهند

وقد فقدت الموشحات التي نظمها ابن حكم ولم تصل إلينا، ولعلنا نظفر بها يوماً فيما قد يعثر عليه من مخطوطات لم تر النور بعد، أو يحتفظ بها أصحابها في مكتباتهم الخاصة ولم تفهرس أو يعلن عن محتوياتها.

وكما كان أبو عثمان سعيد بن حكم شاعراً كان كاتباً أيضاً. وقد احتفظ لنا ابن سعيد ببعض رسائله الإخوانية، وكذلك ابن المرابط بعدد غير قليل من رسائله القصيرة والمطولة. ويبدو أنه كان في فترة مبكرة من حياته يكتب لأحد ولاة الأندلس، إذ يذكر ابن المرابط أن ابن حكم كتب للرئيس أبي جميل زيان ابن الرئيس أبي الحملات مدافع بن الرئيس أبي الحجاج بن سعد إلى الأمير أبي زكريا يحيى الحفصي[78]، كما كتب عن بعض أمراء إفريقية كما يقول ابن عبد

(77) ابن سهل، الديوان: الموشحة 11 ص445.

(78) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ورقة 164.

الملك المراكشي «بعد أن غادر الأندلس قديماً في فتائه»[79].

أما رسائله التي احتفظ لنا ابن سعيد ببعضها، فمنها رسالة ابن حكم إلى صديقه ابن سعيد مجاوباً له شاكراً على هدية ربما تكون كتابين، استهلها ببعض الأبيات التي يقول فيها[80].

ما رأينا كعلي بن موسى يستبي بالشعر منا النفوسا
قد أرانا الشعر سحراً حلالا سائغاً لو نحتسيه كؤوسا

ثم بعد أن يذكر أبياتاً ثلاثة أخرى يبدأ رسالته النثرية التي تنم عن وده وشوقه وتقديره لابن سعيد وآبائه فيقول: «امتع الله بك، أيها الولي الكريم، الوفي الصميم، الشريف أبا، المنيف حسبا، وصنع لك، وبلغك أملك، يخصك بالسلام الطيب كثنائك، الصيب كوفائك، مجلك بالحق الواجب، ومحلك من الود بين الترائب، سعيد بن حكم، وقد وردت الحديقتان الأنيقتان، والروضتان الغضتان، تعبقان إذا تنتشقان، وتروقان لما ترمقان، والحسن من مرآهما يسفر، والدجن ينجلي من سناهما إذا يسفر، سبقت أولاهما كالبشرى، ونسقت بعد على إثرها الأخرى، فوافتا بالوفاء كله، ونافتا للقاء وكله، وجاءتا خفيفتي المحمل، ولطيفتي المجمل، قدرقتا فراقتا، وشقتا شقة البعاد بعد ما شاقتا، فلله مهديهما ومطلعهما نيرتين، لقد أوجب ببرهما حقاً كبيراً، وحمل من شكرهما ما يثقل ثبيراً، والله يتولاه، ويحفظ عليه من الحلي ما أولاه..».

ومن طريق ما كتبه نثراً، وذلك ضرب من ضروب التفنن في الكتابة والرياضة العقلية والأدبية، قوله بما يشبه اللغز في الفنار الذي يحمل فيه القنديل[81]:

«ما مصقول له رواء، محمول كأنه لواء، معمول على نسب كلها سواء،

---

(79) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 4: 30.

(80) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 29. كما يذكر ابن سعيد جزءاً من رسالة لابن حكم كان قد أرسلها إلى صديقه ابن همشك وذيلها بأبيات من الشعر (ص104) وجزءاً من رسالة أرسلها إلى أمير تونس وقد احتفظ ابن سعيد بأبيات الشعر التي ختم بها ابن حكم رسالته.

(81) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، 36 ابن المرابط، زواهر الفكر، ورقة 48.

وما له معقول ففؤاده هواء، قد نُظم نظماً وما ضم إلا عوداً وعظماً، يساير الظلام ويسامر، وينافي الصباح وينافر، ويصادي[82] الرياح الهوج ويصادر، ومن لم يرد به الليل الدجوجي أعيت عليه المصادر، أحرف هجائه أربعة، وعلى نير سمائه أرفعه، إن أغرت على أوله أنرت[83]، أو بتكت[84] آخره فتكت، وإن ألقيت ثاني أحرفه ألفيت ما بعض الطوافين هامز لألفه، ولا أعرض منه للثالث القائم، فإن مصحف الباقي بعده سبب المناوح والمآتم[85]. أما تعجبون لهجره الضياء ثم يثمره، ولوصله الظلام وهو ما يزجره، يرخي على النور فضل الذيل، ويعين على ناشئة الليل»[86]. وله مثل ذلك لغز في شمعة[87].

«ما جميلة المرآة، صقيلة كالمرآة، منتصبة كالقناة، مرتقبة من الأذان بالعشاء للأداء، مع الاستعمال قريبة الحياة، وعلى العطلة والإغفال بعيدة الوفاة، منهلة وليست بغمامة، مستقلة ولكن بدعامة، ومع كونها تهمي بدرر، ترمي بشرر، كأنه ذهب حصل في سلك، أو كأنه سيب ماء وهو منه عصا فلك...».

ونكتفي بهذا القدر من هذه القطعة النثرية التي هي لغز في شمعة أراد بها الكاتب ابن حكم أن يتفنن فيها كسابقتها ويجعل من موضوعها لغزاً يختبر به قدرته على الكتابة وقدرة القارئ أو السامع على فهم اللُغز وإدراك مراد الكاتب.

وهاتان القطعان مثل رسائله التي أورد ابن سعيد وابن المرابط نماذج منها، وأشرنا إليها آنفاً، تعكس طبيعة نثر ذلك العصر، وهو القرن السابع الهجري الذي كان فيه النثر يهتم بالمحسنات البديعية، وفي مقدمتها السجع الذي يأتي سلساً أحياناً، ومتكلفاً أحياناً أخرى، ولا عمق للفكر فيه سوى هذه المقدرة على الكتابة وتطويع الألفاظ لما يريده الكاتب سواء في رسائله الإخوانية أو الديوانية، وينسجم مع تيارات الكتابة النثرية المرصعة بهذه المحسنات البديعية التي صارت

---

(82) يصادي: يمنع.

(83) أي حذفت الفاء، وهو أول حروف الكلمة، صار باقي الكلمة «نار».

(84) بتكت: قطعت يريد حذف الراء فالباقي بعدها «فنا».

(85) يريد تصحيف الراء إلى همزة.

(86) ناشئة الليل: ساعاته كلها، وقيل قيامه.

(87) ابن سعيد، القدح المعلى، 36ـ37

عنواناً على قدرة الكاتب وسمة العصر الذي يحيا فيه، وإن أخفت عجزاً فكرياً وتكراراً للمعاني التي سبقهم كتاب آخرون في عصور الازدهار إليها.

وبعد.. فنأمل، ونحن نختم هذا البحث المقتضب، أن قد وفقنا إلى إعطاء لمحة وافية وصورة غير باهتة عن أبي عثمان سعيد بن حكم، ذي الشخصية الفذة التي جمعت إلى الحزم والسياسة والكياسة قدراً وافراً من العلم والأدب شعراً ونثراً ورعاية وعناية بالعلماء والأدباء في جزيرة منرقة التي قدر الله لها أن تصارع لمدة نصف قرن في ظل ابن حكم، وبفضل سياسته، السقوط في أيدي الأعداء بعد أن سقطت اختاها جزيرتا ميورقة ويابسة في براثن عدو لا يرعى إلاً ولا ذمة، وحافظت هذه الجزيرة الممتنعة على المتربصين بها مدة نصف قرن على هويتها العربية الإسلامية قبل أن يسدل الستار نهائياً على هذا الجزء المشرق الوضاء من أقطار العالم العربي الإسلامي، ممثلاً في إحدى جزر الأندلس ذلك الفردوس المفقود، والذي يسميه الدكتور حسين مؤنس - متفائلاً - الفردوس الموعود.

المصادر والمراجع

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد

تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1986.

التكملة لكتاب الصلة، ج 1ـ 2، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة 1956.

كتاب الحلة السيراء، ج 1ـ 2 تحقيق حسين مؤنس، القاهرة 1963.

ديوان ابن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، تونس 1985.

ابن إدريس، أبو بحر صفوان التجيبي المرسي

زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أعده وعلق عليه عبد القادر محداد، بيروت 1980.

ابن الخطيب، لسان الدين

الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1ـ 4 تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1975ـ 1977.

كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال بيروت، 1956.

اللمحة البدرية في الدول النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة 1347هـ ابن رشيد، أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي.

ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، ج2 تحقيق محمد الحبيب بالخوجة، تونس 1982.

ابن الزبير، أبو جعفر أحمد

صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، 1937.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى

اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة 1959.

المغرب في حلى المغرب ج1 ـ 2 تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1953ـ 1955 ابن سهل، إبراهيم.

ديوان ابن سهل الإسرائيلي، تحقيق محمد قوبعة، تونس، 1985.

ابن شريفة، محمد

أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، الرباط، 1966.

ابن عذارى (المراكشي)

البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (القسم الثالث) عني بنشره أمبروس هويسي مرانده، تطوان 1960.

ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي

درة الحجال في أسماء الرجال، ج1، نشر علوش، الرباط 1934.

ابن المرابط، أبو العلاء محمد بن علي المرادي

زواهر الفكر وجواهر الفقر، مخطوط بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا، تحت رقم 520 التلمساني، أبو عبد الله.

الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، ج 1ـ 2 تحقيق محمد التونجي، الرياض 1983.

التنبكتي، أحمد بابا

نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ج 1ـ 2 ط. طرابلس 1989م.

الحميري، محمد بن عبد المنعم

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط. 2 بيروت 1984.

ريبيرا

المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، ترجمة جمال محمد محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 4 ج1.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة 1964.

سيسالم، عصام سالم.

جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار) بيروت 1984.

الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض بيروت، 1969.

مجهول

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن شنب ط. الجزائر 1920

المراكشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي.

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول (القسمان الأول والثاني) تحقيق محمد بن شريفة ط. بيروت (بدون تاريخ).

بقية السفر الرابع تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1964.

السفر الخامس (القسمان الأول والثاني) تحقيق إحسان عباس، بيروت 1965.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج 1. 8، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968.